المديريات الوسطى فتصير تروى ريًّا صيفيًّا ونجو مئتي الف فدان في الوجه البحري والفيوم من الاراضي البور تأتيها مياهُ الري . ولتضاعف مساحة الاطيان التي تروى الآن ريًّا صيفيًّا في الفيوم . وفي المديريات العليا فوق اسيوط يباح تركيب الآلات الرافعة لري مئتي الف فدان. ثم ان الري الصيفي في الوجه البحري والمديريات الوسطى غير مأمون الآن في زمن التحاريق الشديدة كما حدث منذ ثلاث سنوات فيصير مأمونًا في المستقبل وفائدة ذلك كلهِ تربو على ما أُنفق على الخزان . وبقليل من النفقات يتضاعف الماء الذي يخزن فيهِ فيتضاعف نفعهُ

الرتب والاوسمة

شغف القوم في مصر والشام وفارس والروم بالرتب والاوسمة في هذه الاعوام شغفًا بلغ حدّ الهزل وكثر التكالب على الاستكثار منها تكالبًا اثَّر تأثيرًا سيئًا في الاخلاق تمَّا سينعيهِ التاريخ ويسجل بهِ على مبلغ عبدتها وعبيدها والمتعبدين بها من العقل. وقد افاضت بعض الصحف السيارة في هذا الموضوع واوسعت المولعين بالسفاسف تنكيتًا وتبكيتًا فرأيت معاودة البحث في ذلك عقيمة الَّا اذا كان من الوجهة الاجتماعية والتاريخية على ما ستراهُ

تاريخها

لم تُعهد الرتب في الغرب الَّا في القرون الوسطى ايام كانت تُباع الالقاب العلمية والجندية كما يباع الثور والشاة ويمنحها الملوك القدماء من عند انفسهم الى من يهشهم الهوى على التعطف عليهم . اما في الشرق فيردّ تاريخها الى اواسط الدولة العباسية ايام دخل الفرس والتتار والديلم والترك في خدمة الخلفاء . قال ابن الحاج في المدخل عند ذكر النعوت وبدعها ان سبب الالقاب الترك فانهم لما تغلبوا على الخلافة تسمَّوا هذا شمس الدولة وهذا ناصر الدولة وهذا نجم الدولة الى غير ذلك فتشوفت نفوس بعض العوام ممن ليس لهُ علم الى تلك الاسماء لما فيها من التعظيم والفخر فلم يجدوا سبيلاً اليها لعدم دخولهم في الدولة فرجعوا الى امر الدين فكانوا اول ما حدثت عندهم هذه الاسماء اذا ولد لاحدهم مولود لا يقدر ان يكنيهُ بفلان الدين الَّا بامر يخرج من السلطنة فكانوا يعظمون على ذلك الاموال حتى يسمّي ولد احدهم بفلان الدين. فلما ان طال المدى وصار الامر الى الترك لم يبقَ لهم بالتسمية بالدولة معنًى اذ انها قد حصلت لهم فانتقلوا الى الدين. ثم فشا الامر وزاد حتى رجعوا يسمون اولادهم بغير ما لم يعطوهُ على ذلك ثم انتقل اليهِ بعض من لا علم عندهُ ولا عمل ثم صار الامر متعارفًا متعاهدًا حتى انس يدِ العلماء فتواطأوا عليهِ"

اما الاوسمة فقديمة العهد في الغرب اكثر من الرتب وكان الجند الروماني ينال زيادة على المكافآت المالية نقوداً وشيئاً من الغنيمة إعظاماً لقدرهِ فيقف القائد وسط الجيش ويمتدح الباسل ويدفع اليهِ سلاح شرف واوسمة تشبه اوسمة اليوم كل الشبهِ كما روى بعض كتَّاب الافرنج . وكان للجندي المكافإ بمثل هذه الانعامات ان يتقلَّد ما حازهُ ويتوشح بهِ في الاستعراضات وايام المواسم والانتصار والملاعب وغيرها من الاحتفالات الرسميَّة . وانواع هذه الاوسمة كثيرة منها تيجان ينالها الجندي في الحرب اذا كان اول الهاجمين على جيش العدو او على قلعة وحصن ومنها ما يُعطى لامير البحر اذا حطَّم اسطول العدو او باغت محبًّا . ومنها اكاليل من اوراق الزيتون تعطى للجند او الضباط الذين ساعدوا على احراز الظفر لبلادهم . ومنها اكاليل من اغصان البلوط وطلعها توهب لمن ينقذ جيشاً رومانيًّا ويهلك احد خصوم امتهِ . ومنها غير ذلك من اسورة وقلائد من الذهب والفضة تعلَّق في الصدور او في قرون صغيرة تُناط باطراف الخوذ . وقد شُدِّد الخناق على عهد الامبراطوريَّة الفرنسويَّة في اعطاء هذه الاوسمة اما اليوم فيكافأ بالاوسمة في اوربا مَنْ قام بخدمات لمملكتهِ من ترقية العلوم والآداب والصنائع ولكل من يخدم الارتقاء ويعين على توطيد دعائم العمران . اما الاوسمة في الشرق فليست قديمة العهد اخترعها سلاطين آل عثمان في القرن الماضي وما زالوا يبتدعون منها انواعاً بحسب الاحوال

عزَّتها

لئن كان شرف الرتب والاوسمة وهميًّا فقد احتفظت قديماً بعزتها فكان الناس يتبارون في اخذها مباراة حقيقية ليتأهلوا لها بالقول والفعل وكانت في المشرق بعيدة المنال حتى على أعاظم القوَّاد والفاتحين . ورد في منشآت فريدون التركية ان احد مشاهير قوَّاد الاتراك واسمهُ بالي بك بعث يوماً الى السلطان سليمان القانوني يستمنحهُ " رتبة لمير الامراء " وقضاء بعض مصالح شخصية مقدَّماً بين يدي نجواهُ ما قام بهِ من الفتوحات وتمَّ على يديهِ من المغانم للدولة . فأجابهُ السلطان الى قضاء مصلحتهِ ولم يجبهُ الى ترقية رتبتهِ وزاد بأن عنَّفهُ على ما تبجح بهِ في كتابهِ ووصفهُ بالغرور لانهُ زعم ان فتح البلاد والحصون كان بدربتهِ ودهائهِ وصدق عزيمتهِ ومضائهِ قائلاً بان الرتبة لم يستحقها بعد ومتى آن اوان اعطائها يمنحهُ اياها بلا طلب منهُ ولا الحاح

ويروى انهُ اقترح مرة تعيين ابن شهاب واظنهُ الامير بشير حاكماً على جبل لبنان فابت المراجع العليا بادئ بدء الاقرار على ذلك مدعية ان منزلة رتبتهِ التي كان يتقلدها وهي " امير الامراء " تسقط بتقلدهِ منصباً لا يليق بدرجتهِ ورتبتهِ . ومثل ذلك ما كان من السلطان سليمان القانوني من إنكارهِ على بياله باشا ترفيع رتبتهِ الى الوزارة عقيب فتح جزيرة جربا الواقعة

على مائتي ميل من طرابلس الغرب واستخلاصهِ لها من الاسبان وقفولهِ الى الاستانة في اربعة آلاف اسير وثلاثة من اشهر امراء البحر عند العدو قائلاً مضى سنتان على رتبة "بكلربك" الموجهة عليهِ فمن العجلة ان تُعطى لهُ الوزارة هذه المرة لئلا يتنازل قدرها وهي من اعظم المراتب الدنيوية . ولاكرامهِ لذاك القائد زوّجهُ من ابنة السلطان سليم واغدق عليهِ الهبات المالية . قال كاتب جلبي بعد ايراد هذه القصة : على هذا المنوال كانت عزة المناصب واعتبارها في تلك العصور فابتُذلت في عصرنا حتى فقدت كل اعتبار ولم يبقَ للوزارة القدر الذي كان لامير اللواء . وعقّب عليهِ جودت باشا مؤرخ الدولة العليّة وعالمها بقولهِ ماذا كان كاتب جلبي يقول لو جاء في عصرنا هذا وكيف كان يبيّن سقوط اعتبار المراتب . اما الكاتب اليوم فليس لهُ ما يقول الآن الاّ السكوت عما هو جارٍ في القرب والبعد من التفاني في الرتب والاوسمة ومنحها عفوًا صفوًا حتى حقَّ لمن تعقّل ورأى تهوّس الناس في نيلها ان يتمثل لدى كل شارقة وبارقة بما قالهُ الشاعر الاندلسي في القرون الوسطى ايام تدرُّج الملوك والامراء في الاغراق في النفاق بحيث لم يعودوا يجدون لالقابهم "لاّ" الفاظ الربوبية مثل الملك الرحيم وملك الملوك مما انكرهُ عقلاء العلماء اشدَّ الانكار اما البيتان الاندلسيان فهما

مما يزهدني في ارض اندلس القاب معتضد فيها ومعتمدِ
القاب مملكة في غير موضعها كالهرّ يحكي انتفاخًا صولة الاسدِ

وما الطف ما وصف بهِ الراغب الاصفهاني اولئك المولعين بالقاب لا يليقون بها فقال : "ما هذه الالقاب العريضة والرقاب الغليظة ما للفاجر دُعي بالعفيف وما استحيا ولِمَ كُني الموت بابي يحيى. وكيف سُميت المهلكة مفازة ولو انصفوا لسموها جنازة. يلقب هذا صدرًا وما اضيقهُ. وذلك بدرًا وما اغسقهُ. ونقيًا وما افسقهُ . ورشيدًا وما اخرقهُ . وامينًا وما اسرقهُ . وشجاعًا وما افرقهُ . ويمينًا وما اشأمهُ . وكريمًا وما ألأمهُ وسراجًا وما اظلمهُ . وعزيزًا وما اذلّهُ . وصارمًا وما اكلّهُ لئام تسمّوا باحاسن الاسماء واشتهروا بالقاب لم تنزل من السماء . اشباح بلا احلام كتماثيل حمام. واسماء بلا اجسام كالحرث بن هام" . . . . . ويقرب في الظرف ما قالهُ ابو بكر الخوارزمي مخاطبًا بهِ العباسيين وكان من الحانقين على ترفهم وسرفهم كسائر العلويين

مالي رأيتُ بني العباس قد فتحوا من الكُنى ومن الالقاب ابوابا
ولقّبوا رجلاً لو عاش اولهم ما كان يرضى بهِ للحُش بوابا
قلّ الدراهم في كفّي خليفتنا هذا فانفق في الاقوام القابا

هذا وقد ابتُذلت الالقاب والاوسمة في الشرق كلهِ واكثر بلاد الغرب حتى غدا المتزّر

المثقل يتجافى عن قبولها لو وُهبت لهُ من الملوك رأساً كما فعل سبنسر وبامتور وغلادستون وغيرهم بان ردُّوا الاوسمة التي هادتهم بها الملوك اعترافاً بعظيم خدمتهم للمدنية والانسانية . على انهُ مهما بلغ من تفاني بعض الشعوب الاوربيَّة باخذ الاوسمة لا يشقُّون غبار سكان هذه الديار وقد اشبهوا اعيان الروم في القسطنطينيَّة غداة افتتحها السلطان محمد الفاتح العثماني وارادوا المثول بين يديهِ واخذوا يتزاحمون ببابهِ ولا تزاحم الكلاب على عقيرة ليستأثر كل منهم بالتقدم على رفاقهِ في الدخول على الفاتح وفاتهم ان ليس الوقت وقت ترفّعات يحرصون عليها وان كل شيء يهون بعد فقد الاستقلال وفساد الحال والمآل

ومن رأي صاحب تاريخ اشهر مشاهير الاسلام ان توفُّر تلك الالقاب والنعوت في الدول من نتائج التطلع الى المجد الباطل والاعراض عن المجد الحقيقي والشرف الذاتي ومنشأ هذا امران " فقد التربية وانحلال الدول " اما فقد التربية فلانهُ يضعف قوة الارادة ويذهب بآثار العلم ويقضي على حب الفضيلة فيميل بالناس الى الخمول ويتنكَّب بهم طرق الفضائل فيصابون بفتور الهمم وانحلال العزائم فيقعد بهم ذلك عن تناول الشرف الذاتي من طرق الجد والعمل ويدعوهم الى طلب المجد الباطل من طرق الرياء والمداهنة والتحيُّل والكسل وغير ذلك من الامور التي تدلُّ على فقد الشمم وموت العواطف وانحطاط ملكات العمل والعلم وتصاراها ضعف الامم وتدرُّجها في مدارج التدني والانحطاط حتى آخر درجة من الهبوط الى هوَّة الدمار والفناء حيث يبدأ غيرها بالصعود ممن كان ينازعها البقاء. وهكذا كان الشأن مع الفرس والعرب لما نازعهم هؤلاء البقاء وغلبوهم عليهِ مع حداثة ظهورهم في الدولة والملك

واما انحلال الدول فلانهُ يحل عرى الالفة وتتناكر بهِ القلوب وينفضُّ الناس من حول الامير لضعف امرهِ فيهم او تعسُّفهِ بالحكم عليهم فيحال لاجتذاب قلوب افرادهم ويتألَّفهم تارةً بالرشى وطوراً بمنح الالقاب وضخامة التشريف بشارات الدولة فتفسد بذلك اخلاقهم وتغترُّ بمظاهر التفخفخة الكاذبة نفوسهم فيتطلعون الى رتب الدولة والقاب التشريف الباطلة . وهكذا كان الشأن لما انحلَّ امر الخلافة العباسيَّة في بغداد والفاطمية في مصر وابتدع الخلفاء من القاب التشريف الكثيرة ما يتألَّفون بهِ قلوب الناس ويجتذبون اليهم افئدة الامراء المتوثِّبين على الملك الغالبين على امر الخلافة ولكن لم يغنِ ذلك عن سقوط خلافتهم وانحلال دولتهم

الغرض منها

جاء في دائرة المعارف الفرنسوية فصل في علاقة علائم الشرف بالاخلاق والعمران هذا تعريبهُ :

يحب المرء ان يعترف باستحقاق المستحق اذا لم تنبعث في قلبهِ نار الحسد ولم يستحكم من جوارحهِ مرض الغرض وتميل الحكومات الى مكافأة من احسن خدمة تنتج عنها فوائد عامة ليتميز عن الجمهور كلُّ اهلٍ للخير من اهل البلاد وتكون افعالهُ مهما كانت قيمتها وجنسها من دواعي الشرف بين الملإ . وفي ذلك من الفوائد الظاهرة ما لا ينكر لبيبٌ محلَّهُ . فهو من حيث الاخلاق عبارة عن اجراء العدل مجراهُ ومن حيث الاجتماع داعية لاستلفات الرأي العام اذ يصبح المكافأة مثالاً يحتذى وتُستحثُّ بهِ الهمم وتُبعَث الكفاءات من مرقدها ويتبارى الناس ليحسنوا القيام على عمل ينيلهم الحظوة والرضى . ولذا شاع استعمال علائم الشرف منذ ازمان متطاولة وقُيِّد منحها بشروط تختلف باختلاف البلاد

لم يُعهَد قديمًا ما يُشبه الرتب والاوسمة المعروفة اليوم عندنا وعند الممالك السائرة مما يمنح بصفة دائمية ويتوشح بهِ المنعم عليهم في الاحايين اثناء الحفلات الرسميَّة ويمتازون بهِ كل وقت في حياتهم . كانت الجوائز التي تمنح في الالعاب الاولمبيَّة تورث الظافرين شرفًا عامًّا يشاركهم فيهِ وطنهم . ولم يكن لتلك الجوائز علامة تدلُّ عليها يظهرون بها امام الناس على الدوام . وكذلك كان حال من يشرَّف في رومة لظفرهِ بالاعداء . فلم تكن لتنقضي ايام نصرتهِ حتى تذهب آثار ذلك عنهُ ذهاب امس الدابر

وكان للوظائف العامة وحدها علائم محدودة معروفة يتقلَّدها صاحبها عند ممارستهِ عملهُ ويطَّرحها عنهُ في آونة فراغهِ وتنحّيهِ عن اعمالهِ مما ترى عكس صورتهِ اليوم فيما هو شائع لهذا العهد في فرنسا مثلاً من الدلالة على علائم الشرف بصليب اوعقدة او نوط اوغصن غار ونحوها اشارةً لوسام جرقة الشرف ووسام الجنديَّة وجوائز المجامع العلميَّة والجمعيَّات الزراعيَّة . ويُفهم من تاريخ المظاهر الرسميَّة والالقاب والرتب ان علائم الشرف دامت شائعة بعض الشيوع تنتقل خلفًا عن سلف خلال القرون الوسطى والحديثة . على ان القاب الشرف لم تكن يجب لمتها وراثية على عهد الملكية بفرنسا اذ كاد ينعم بها انعامًا خاصًّا على من يتقلدون بعض الوظائف وينحصر استمتاعهم بها ما داموا احياء

اتت الثورة الفرنسوية فاتت على الالقاب وشارتها جملة . غير ان نابوليون ارتأى ان يعتاض عنها باختراع ما يقوم مقامها على طريقة دستورية لا اجحاف فيها ولا هضم . فأحدثت من ثم القاب شرف وراثية يتمتع بها خواص ملكهِ المتفانون في خدمتهِ . القابٌ خصت بتشريف صاحب الكفاءة الشخصية فغدت اعزَّ من الغراب الاعصم لان نيلها كان متعذرًا الاَّ على من عمل عملاً قدرهُ الناس حق قدرهُ . ثم عاد نخطر بالبال اختراع اوسمة اخرى خاصة بمكافأة

اعمال تستحق الاعتبار دون غيرها

لهذا نقترح مسألة طبيعية فان الحكومات قد تنتفع بمباراة الاهلين بعضهم مع بعض خدمة للخير العام فتستعمل علائم الشرف ذرائع لاحياء تلك الهمم الوطنية . ومن العدل ان يكون لتلك السلطة العامة التي يرجع اليها معاقبة المسيء حقٌّ في عمل ما يقابلها من مكافأة المحسن مما هو ولا جرم من حقوقها الجوهرية . الاَّ اذا ارادت الامم ان تعتبر الحكومات محافظة على الضبط والربط فقط

تقضي الحال بان ينظر في التنديدات التي التجئها حقوق هذه السلطة لان ليتس كلها عاريًا عن نصائح ينتفع بها واقل فوائد هذا التنديد انهُ ينبه الافكار الى سوء الاستعمال في منحها وان كان لا يقدم على النقد في الغالب الاَّ من خاب املهُ في الحصول عليها . على انهُ صعبٌ رفع اسباب الشكوى بالمرة لان رضا الناس غاية لا تدرك ولا منفوحة مع هذا عن استعمال ما يتأتى بهِ ارضاء الاشخاص ارضاءً عادلاً دون ان يحدث فتور في همم السواد الاعظم من القوم وتحاميًا من ان تؤثر فيهم تأثيرًا سيئًا فيربو الضر على النفع كأن يترفَّع المنعم عليهم بعلائم الشرف من اصحاب الاقتدار الادبي فيزهدون في قبولها ولا يلبث اعتبارها ان يسقط . ومن اللازم اللازب ان يخص بهذه النعمة المستحق الفاضل دون الفظ الى ما لا بد ان يقال من نسبة تشيُّع المنعِم للمنعَم عليهِ وذلك بان يستند معطيها الى قواعد راهنة تدفع ما يرميهِ الناس بهِ والى عدل يشفع لهُ في انامهِ

ومن الواجب الاقتصاد في منح هذه الاوسمة والالقاب وان يتوخَّى المنعِم بها ان لا يهبها الاَّ لمن يستحقُّها ممن لا ينكر عليهم استئهالهم لها ابعد الناس عن معرفة الحقيقة . ومن الخطإ الفاضح ان يذهب بعضهم الى ان عدد الراضين يزيد بمضاعفة علائم الشرف اذ الامر بخلاف ذلك وكلما خفضت المطالب والقيود درجة زادت الدعاوي الطويلة العريضة وما انت بصاحبها في هذا الطلب الاَّ كأنهُ يتقاضى حقًّا او امرًا مشروعًا . وكلما زاد اعطاء الاوسمة وقعت الحكومات في شراعمالها وهي في ذلك بين امرين اما ان تعطيها لاناس لا خلاق لهم او لمن لهم علم واقتدار ولكنهم معروفون بالاخلاق السافلة . وكلا الحالين قبيح وافبح . وما حال الشعب اذ ذاك الاَّ حال الاطفال في المدرسة يطمحون الى المكافآت المدرسية ويحرصون عليها اكثر من طموحهم الى التقدم الحقيقي مما ليست المكافآت الاَّ اشارات دالة عليهِ فيرغبون في نيلها دون ان يحتقروها اكثر من رغبتهم في استحقاقها دون ان ينالوها

يقال ان بعض النساء يحرِّضن رجالهنَّ على اخذ الاوسمة (ومن شنشنة المرأة ان تميل

لان ترى زوجها فائقاً اقرانهُ ولا لوم عليهن في هذا الهوى كما يلام الرجال فالزينة من خصائصهنَّ) فمن ثم ينشط الرجال ويتسلقون كل عقبة كؤود لنيل علائم الشرف دع عنك ما يأتونهُ من طرق غير شريفة ممَّا لا يمكن اجراء العقاب عليهِ . ولا يخفى ما في طلب المرء بنفسهِ علامة الشرف من الغرابة ومخالفة المعقول

سأل سائل عظيم : " يا هذا اي الطرق سلكت لاحراز الوسام — فاجابهُ انني عمدت الى الوسائط اللازمة فقمت بها حقَّ القيام " وليت شعري اليس من الغريب ان تُعتبر تلك الطرق التي لجأ اليها في عرف الكثيرين من الامور الطبيعيَّة في العالم . نعم ليس ثمت من الطرق ولله الحمد ما ينبغي الجري فيهِ ولكنهُ كبُرت اليوم كلمة ظنٍّ تجول في الخواطر لنيل ذاك الشرف ولا يحتمل في الحقيقة ان يطمح انسان على هذا النحو في علائم شرف يستحقها من كل الوجوه . وان اول امر ينبغي العمل بهِ ان يسدَّ باب الاحسان بهذه التشريفات في وجه كل من يطلب الدخول اليهِ اه

هذا كلام العالم الفرنسوي وهو كما تراهُ حقٌّ ولو جروا في منح الرتب والاوسمة على الخطة التي رسمها لاحتفظت بشرفها لا محالة وحصلت الفائدة منها وما احرى ماضيها ان يمشوا على القاعدة المألوفة من ان طالب التولية لا يولَّى . وهنا اختم المقال بما هو مأثور عن عمر بن الخطاب من انهُ اراد يوماً ان يستعمل رجلاً فبدر الرجل يطلب منهُ العمل فقال عمر" والله لقد اردتك لذلك ولكن من طلب هذا الامر لم يُعَنَّ عليهِ "

بحَّاث دمشقي

العام الماضي

مضت السنة الثانية من القرن العشرين بعد ان اذاقت الناس الحلو والمرَّ . اطفأت نار الحرب في الترنسفال وحجبت دماء العباد واوقدت نار الارض في جزائر الانتيل فاذابت السكن والسكان . اقيم فيها اثر للصناعة نرجو ان يرسخ في وادي النيل رسوخ اهرامهِ وسقط اثر آخر في البندقية بعد ان قاوى الدهر مئات من الاعوام . واشعلت شعلتين في شرقي افريقية وغربيها شعلة الصومال وشعلة الغرب الاقصى ولا ندري ما يكون من امرهما في عامنا الجديد. وفي ما سوى ذلك مرَّ العام الماضي والسلم موطد الاركان نعني بهِ السلم المناقض للحرب بالسيوف والرماح والبنادق والمدافع . واما الحرب الاجتماعيَّة بين العمال وارباب الاموال فاشتد سعيرها في اميركا واسبانيا وانكلترا وفرنسا . العمال واكثرهم من مستخرجي الفحم الحجري يطلبون ان تزاد اجورهم